المحاضرة السابعة

الخط العربى فى العصر المملوكى

- يعتبر العصر المملوكي في مصر هو العصر الذهبي لتجويد خط الثلث، حيث اهتم سلاطين المماليك بالخط العربي؛ وأنشئوا له عديد من المدارس لتعليمه وتحسينه، ومن أمثلتها مدرسة الشيخ شمس الدين الزفتاوي، ومدرسة ابن أبي رقيبة بالقاهرة، وقد اشتهرت مصر بتجويد الخط، وظلت مدارسه بها عامرة حتى قرب نهاية العصر المملوكي.

- يذكر ابن خلدون:"لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع، ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة(656هـ/ 1258م)؛ فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم إلى مصر والقاهرة، فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد، وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم، فلا يلبث المتعلم أو يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسناً وحذق فيها دربة وكتاباً وأخذها قوانين عملية؛ فتجئ أحسن ما يكون" .

- ولقد عرف عن سلاطين المماليك حبهم للفنون ورعايتهم للفنانين، ومما يدل على ذلك كثرة ما وصلنا من العمائر المملوكية والتحف الفنية المختلفة التي ازدانت بالكتابات العربية بمختلف أنواع الخطوط، وأيضاً نبغ كثيرون في فن الخط من بينهم بعض السلاطين .
- ولقد تميز خط الثلث في العصر المملوكي بحروفه ذات الحجم الكبير، وارتفاع الحروف الطالعة كالألف واللام التي كانت ترتفع إلى أعلى في حين تنبسط وتستلق حروفه الأفقية وتنزل إلى أسفل، مما حقق المزيد من التوازن والتقابل الزخرفي بين حروف الكتابة نفسها .

- وقد استمر استعمال الخط الكوفي بمختلف أشكاله في العصر المملوكي إلى جانب خط الثلث، غير أنه تميز بالطابع الزخرفي، حيث أدخلت عليه شتى أنواع الزخارف النباتية والهندسية، مما جعله أكثر انسجاماً مع خط الثلث بطبيعته اللينة، وقد اشتركا معاً في زخرفة كثير من العمائر والتحف الفنية المختلفة، فكانا يستعملان في الكتابة على أثر واحد أو تحفة واحدة في تناسق وانسجام.

- ومن المعروف أن المدرسة المصرية المملوكية في فن الخط العربي قد استمرت قائمة وفقاً للأساليب الفنية للمدارس القديمة، وعلى الأخص مدرسة ابن البواب، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال كتابات العمائر المملوكية، ومن خلال المصنفات الأدبية التي وضعت في فن الخط وتعليمه_في هذا العصر_من قبل أساتذة المدرسة المملوكية التي قامت على أيدي الشيخ ابن العفيف، وابنه عماد الدين بن العفيف.

- وقد تخرج على يد ابن العفيف "شمس الدين بن أبي رقيبة" محتسب الفسطاط في زمانه، وتخرج عليه أيضاً "الشيخ شمس الدين محمد بن علي الزفتاوي"، المتوفى سنة (806هـ/ 1403م)، شيخ القلقشندي المتوفى سنة (821هـ/ 1418م)، وأستاذه في فن الخط، وشيخ ابن حجر العسقلاني أيضاً.وقد صنف الزفتاوي مختصراً في قلم الثلث مع قواعد ضمها إليه في فن صناعة الكتابة، وهو بعنوان:"منهاج الإصابة"، وتخرج على الزفتاوي أيضاً الشيخ زين الدين شعبان الآثاري، المتوفى سنة (828هـ/ 1424م)، وهو صاحب الألفية المنظومة المعروفة:"بالعناية الربانية في الطريقة الشعبانية"، وكان هناك الشيخ شمس الدين الوسيمي، وتلميذه ابن الصايغ"عبد الرحمن بن يوسف الزين القاهري"، المتوفى سنة (845هـ/ 1441م)، وأيضاً محمد بن حسن الطيبي، صاحب مصنف"جامع محاسن كتابة الكتاب"، الذي كتبه ليقدمه للسلطان الغوري، ويحتوي الكتاب على أشكال للحروف على طريقة الأستاذ علي بن هلال (ابن البواب)، وقد ألف هذا الكتاب بغية أن ينعم عليه السلطان بأن يعينه كاتباً في مدرسته، وفي ذلك ما يشير إلى أن طريقة ابن البواب الخطية كانت ولا تزال قائمة ومعمولاً بها حتى العصر المملوكي، بل وتدرس لطلاب الخط حتى نهاية العصر المملوكي في مصر .

- يذكر الزبيدي:"ثم انتهت جودة الخط إلى الشيخ"عفيف الدين محمد الحلبي"، ويعرف أيضاً بالشيرازي، وعنه أخذ ولده"عماد الدين محمد"، وهو إمام النحاة والكتاب في زمانه.ومن كتب عليه الإمام العلامة"شمس الدين محمد بن علي بن أبي رقبة"، وعنه الإمام العلامة"أبو علي محمد بن أحمد الزفتاوي"المكتتب، ولد سنة (750هـ/ 1349م)، وسمع الحديث على خليل بن طرنطاي، وصنف في علم الخط "منهاج الإصابة"، وانتفع به أهل مصر.وقد كتب عليه الحافظ ابن حجر، وكفى به شرفاً، مات سنة (806هـ/ 1403م)، وكان رفيقه في الكتابة على شيوخه الإمام شهاب الدين غازي.وعنه تلميذه الإمام نور الدين الوسيمي، وعليه كتب الإمام زين الدين عبد الرحمن بن يوسف القاهري، المعروف بابن الصايغ، شيخ هذا الفن على الإطلاق، ولد بمصر سنة (769هـ/ 1367م)، ولازم شيخه المذكور في إتقان قلم النسخ حتى فاق عليه، وأحب طريقة ابن العفيف؛ فسلكها واستفاد فيها من أبي علي الزفتاوي المصري، وصارت للزين طريقة منتزعة من طريقتي ابن العفيف وغازي، كما وقع لغازي شيخ شيخه، فإنه كتب أولاً على ابن أبي رقبة(رقيبة) شيخ الزفتاوي المذكور وتلميذ ابن العفيف، ثم تحول غازي عن طريقة ابن العفيف شيخ شيخه إلى طريقة ولدها بينها وبين طريقة الولي العجمي، ففاق أهل زمانه في حسن الخط وانتفع الناس بابن الصايغ طبقة بعد طبقة، ونسخ عدة مصاحف وغيرها من الكتب والعقائد، وصار شيخ الكتاب في زمانه، وشهد له الحافظ ابن حجر بمهارته وأثنى عليه في تاريخه، وقد سمع الحديث على الجمال الحلاوي، وفاته سنة (845هـ/ 1441م)" .

- ومن الأقلام التي كانت مستعملة في ديوان الإنشاء في المدرسة المصرية المملوكية:قلم الطومار الكامل-مختصر الطومار-الثلث-خفيف الثلث-المحقق-التوقيع-الرقاع-الغبار-قلم المصاحف، وصورته شبيهة بقلم الريحان-قلم المسلسل، وهو صورة من صور حروف قلم الثلث، غير أن حروفه متصلة-قلم المقترن، صورته هي صورة قلم الرقاع-قلم اللؤلؤي، شبيه بالثلث الخفيف-قلم النسخ الفضاح (الواضح)-قلم الريحان-قلم الحواشي-قلم الأشعار المؤنق، وهو مركب من قلمي المحقق والنسخ-قلم التعليق-قلم الرياشي، وهو قلم التعليق المطلق، وله نفس قواعد قلم الثلث .

- ولا تمتاز المدرسة المصرية المملوكية عن المدرسة العراقية العباسية في كثير، فعلى الرغم من أن هذه المدرسة قد استوعبت جميع تراث السلف على نحو واسع، إلا أن إنتاجها أتى بدوره ضعيفاً!! إذا ما قيس بإنتاج المدرسة السلجوقية الأتابكية، فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلاديين، فالأولى جودت الخطوط المشتقة من خط الطومار الكبير(الثلث والثلثين)، والثانية جودت خط النسخ.ومما لا جدال فيه أن خطوط المصاحف السلجوقية الأتابكية وهي مكتوبة بقلم النسخ أروع من خطوط المصاحف المملوكية المكتوبة بخط الثلث وأكثرها جمالاً .ويذكر إبراهيم جمعة:"وليس معنى هذا أن المماليك لم يدركوا في مجال تحسين الخط العربي غاية تحسب لهم، وإنما المقصود أن قصارى ما بلغته المدرسة المصرية المملوكية من الإجادة إنما هو دون ما أدركه الأتراك السلاجقة على كل حال، ولا يسع الباحث في تطور الخطوط العربية إلا أن يعترف لهاتين المدرستين معاً بالأسبقية في التجويد والافتنان".

الأسماء التى أطلقت على خط الثلث

- وقد اختلف الكتاب في تسمية قلم الثلث وما في معناه من الأقلام المنسوبة إلى الكسور:كالثلثين والنصف على مذهبين :
- -المذهب الأول:ما نقله صاحب"منهاج الإصابة"عن الوزير أبي علي بن مقلة:أن الأصل في ذلك أن للخط الكوفي أصلين من أربع عشرة طريقة، هما لها كالحاشيتين، وهما:قلم الطومار، وهو قلم مبسوط(مستو)كله، ليس فيه شئ مستدير، قال:وكثيراً ما كتب به مصاحف المدينة القديمة، وقلم غبار الحلية(الحلبة)، وهو قلم مستدير كله ليس فيه شئ مستقيم، فالأقلام كلها تأخذ من المستقيمة والمستديرة نسباً مختلفة، فإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلث؛ سمي قلم الثلث، وإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلثان؛ سمي قلم الثلثين، وعلى ذلك اقتصر صاحب"منهاج الإصابة".

- ويذكر حكاك زاده في كتابه"ميزان الخط العربي":"وما كان فيه من الخطوط المستقيمة ما يساوي الخطوط المستديرة؛ سمي قلم النصف" .
- -المذهب الثاني:أن هذه الأقلام منسوبة من نسبة قلم الطومار في المساحة، وذلك أن قلم الطومار الذي هو أجل الأقلام مساحة، عرضه أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون، وقلم الثلث منه بمقدار ثلثه، وهو ثمان شعرات، وقلم النصف بمقدار نصفه، وهو اثنتا عشرة شعرة، وقلم الثلثين بمقدار ثلثيه، وهو ست عشرة شعرة، وإلى ذلك كان يذهب بعض مشايخ الكتاب، وعليه اقتصر المولى زين الدين شعبان الآثاري في ألفيته .

- وقد أطلق عليه أبو القاسم البغدادي في كتاب"الكتاب"اسم:الثلث، وذكر أنه اشتق منه قلم أخف منه سمي"خفيف الثلث"، ويفهم من هذا أن تسمية الثلث كانت تطلق في بداية اشتقاقه من خط الثلثين المشتق من الجليل"أبو الأقلام"، لتعني أنه خط ثقيل كبير، فإذا ما أطلقت"خفيف الثلث"دلت على أنه خط أخف من هذا الخط الثقيل(الثلث الاعتيادي).
- وقد وصف ابن النديم الثلث بالكبير، فقال:"قلم الثلث الكبير"و"خفيف الثلث الكبير"، وذكر أن مخرج الأخير من قلم خفيف النصف الثقيل .

- **أما مصادر العصر المملوكي، مثل:صبح الأعشى للقلقشندي، وجامع محاسن كتابة الكتاب للطيبي، فقد قسمت قلم الثلث إلى ما يأتي:**
- **-الثلث الثقيل أو ثقيل الثلث أو الثلث الجليل أو جليل الثلث :وهو خط ثلث عريض، تكون النسبة الفاضلة فيه على مثل ونصف، أو أنه ثلث مساحة الطومار، أي 8 / 24، وهو أميل إلى التقوير، ومقياس ألفه سبع نقاط على ما في قلمه .**
- **-الثلث الخفيف أو خفيف الثلث أو الثلث المعتاد(العادي) أو الاعتيادي :وهو خط ثلث يتميز بالوضوح والبساطة في كتابته، فلا توجد فيه زخرفة أو تشبيكاً أو تعقيداً، وإنما يكتب على استقامة واحدة، وهو الذي يكتب به في قطع النصف، وصوره كصور الثلث الثقيل لا تختلف، إلا أنه أدق منه قليلاً، وألطف مقادير منه بنذر يسير.قال الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ:والفرق بينه وبين الثلث الثقيل، أن الثقيل تكون منتصباته ومبسوطاته قدر سبع نقط على ما في قلمه، والثلث الخفيف يكون مقدار ذلك منه خمس نقط، فإن نقص عن ذلك قليلاً؛ سمي القلم"اللؤلؤي".وقطة قلم الثلث محرفة لأنه يحتاج فيها إلى تشعيرات ([1]) لا تأتي إلا بحرف القلم .**
-

([1]) التشعير:الترفيع أو النهاية الرفيعة في الحرف، المشابهة للشعرة، وتلحظ في نهايات العراقات في الخطوط اللينة.

- ويذكر القلقشندي:"وكل من هذه الأقلام فيه ثقيل وهو ما كان إلى الشبع أميل، وخفيف وهو ما كان إلى الدقة أقرب.إذا تقرر ذلك فطول الألف في كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه في مثله ويجعل طولها نظير ذلك، ففي قلم الطومار يضرب مقدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة في مثلها؛ لينتج خمسمائة وستاً وسبعين شعرة وهو طولها، وفي قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطومار وهو ثمان شعرات في مثلها بأربع وستين، فيكون طولها أربعاً وستين شعرة، وكذلك الجميع".

- أما مصادر العصر العثماني فقد استبدلت مصطلح الثلث الجليل باسم"جلي الثلث أو الثلث الجلي أو الجلي دون ذكر للخط"ليفهم منه أنه الثلث دون غيره من أنواع الخطوط الأخرى.وهو ثلث واضح تكون النسبة الفاضلة فيه على مثل وربع، واستعمل في الكتابة على جدران الآثار المعمارية، وحققه مصطفى راقم، وأوصله إلى كماله .
- ومن خلال المصطلحات السابقة يتضح أن قلم الثلث"الثقيل أو الكبير أو الجليل أو الجلي"هو الأصل بالنسبة لقلم الثلث بصفة عامة، وأن الصغير منه أو الخفيف أو المعتاد، إنما هو فقط أدق منه ثقلاً وألطف مقداراً منه بنذر يسير، أما صورته فهي كصور الثلث الثقيل لا تختلف عنها.